الفصل الثامن

الغرب والبقية

ما العلاقة بين الغرب والبقية؟ ما المعتقدات التي تدفع السياسة الخارجية الغربية؟ أسَتَعْمَل تلك المعتقدات على تقدم الحضارة الغربية، أم ستعرضها للخطر؟

إن كل صانع سياسة غربي، وكل مواطن يفكر بأية حال بشأن العلاقة بين الغرب والبقية من العالم، يميل إلى العمل، ضمنياً، أو بصراحة واضحة، بواحد من ستة نماذج عقلية:

1- الشمولية الغربية، وهو الرأي الذي يرى أن الغرب يمثل الحداثة، وأن كل المناطق المهمة من العالم سوف تتحول تحولاً طبعيّاً، عاجلاً أم آجلاً، إلى الليبرالية، والرأسمالية بحسب النموذج الغربي.

2- الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي، أي الاعتقاد بأن على الغرب أن يدفع بالديمقراطية، وبالرأسمالية إلى الأمام في كل أنحاء العالم، وبالقوة إذا دعت الضرورة.

3- المدخل الذي نسميه العالم ـ أمريكا، وهو الذي يرى أن العالم سيكون أسعد وآمن إذا فرضت أمريكا، وحلفاؤها سلاماً شاملاً، وسياسات اقتصادية مشتركة من دون القلق كثيراً جداً حول زخارف الديمقراطية.

4- الغرب القلعة، وفي هذا النموذج يتراجع الغرب إلى نفسه؛ ليحمي حضارته، ويتخلى تخلياً فعالاً بشأن بقية العالم.

5- الرأي الدولي (الكوزموبوليتاني) هو الذي يرى أن الغرب، والبقية سوف يلتقون لقاء طبعيّاً نحو قيم، ومؤسسات مشتركة.

6- إستراتيجية التعايش والجاذبية، وهذه لها أربع شعب، وهي: احترام تنوع الحضارات الأخرى، وأن تكون راغباً في التعايش معها، وإعطاء حياة جديدة للمثل العليا الغربية، واجتذاب البقية إلى الغرب.

وسوف نصف كل إستراتيجية، ونعري افتراضاتها حول الغرب والبقية، ونتفحص سجل مسارها، والأثر المحتمل على الحضارة الغربية، وعلى العالم.

الشمولية الغربية

في العام 1985، ختم المؤرخ البريطاني البارز جيه. إم. روبرتس دراسة للغرب بهذه الكلمات: ما يبدو واضحاً هو أن قصة الحضارة الغربية هي الآن قصة الإنسانية، وتأثيرها منتشر بطريقة تكون معها المعارضات والأطروحات المضادة الآن بلا معنى. «الغرب» الآن لا يكاد يكون لفظاً ذا معنى، إلا للمؤرخين[1].

بعد أربع سنوات، ذهب عالم العلوم السياسية، فرانسيس فوكوياما إلى أبعد من ذلك:

---

(1) روبرتس (2001).

قد نكون نحن الآن شاهدين... نهاية التاريخ في نفسها، أي نهاية التطور الإيديولوجي للإنسانية، ونشر شمولية الديمقراطية الليبرالية الغربية، بوصفها الشكل النهائي للحكومة الإنسانية[1].

والافتراضات التي يستند إليها هذا المدخل واضحة:

- لقد كان الغرب تاريخياً مختلفاً عن البقية، ولكن البقية تصير مشابهة للغرب إلى الحد الذي يجعل لفظة «الغرب» تعبيراً قديماً مهجوراً.
- إن فضائل المدخل الغربي واضحة بنفسها، وسوف يتوصل كل شخص إلى تبنيها.
- إن «تغريب» العالم سوف يحدث بشكل طبعيّ من دون أن يكون على الغرب أن يفعل أي شيء كثير.

ومع أن بعض مواطني الغرب قد يكون ما زال يؤمن بهذه القصة، فإن قلة من صناع السياسة يؤمنون بها، ونحن نستطيع أن نقلب تعليق جيه. إم. روبرتس، ونقول: إن فكرة الشمولية الغربية هي الآن غير موثوقة إلى الحد الذي صارت فيه موضع اهتمام للمؤرخين فقط، وإن أي واحد ينظر إلى ما وراء حدود الغرب يعرف أن العديد من الثقافات حول العالم « وليس الإسلام المحارب فقط» هي ثقافات مقاوِمة للتغريب إلى أقصى حد، وكون علماء العلوم الاجتماعية الجادين في الثمانينيات من 1980 ومطالع التسعينيات من 1990 قد

(1) فرانسيس فوكوياما، «نهاية التاريخ؟»، مجلة ناشيونال إنترست، (16) صيف 1989، ص. 4، 18.

استطاعوا أن يتخيلوا غير ذلك، فيبدو الآن تجلياً غير عادي للتبجح الغربي والانتصارية الغربية، ونأمل أن تكون روايتنا قد شرحت لماذا يكون الغرب مختلفاً عن البقية، وأن 2000 سنة من الحوادث التاريخية الفريدة قد شكلت مواقف الغرب، وجعلتها مختلفة على هذا النحو عن المواقف التي يتخذها أناس في أزمنة سابقة، وأناس في معظم الحضارات الأخرى اليوم. والفكرة التي ترى أن بقية العالم سوف توافق، وتلتزم برغبتها بالمناهج الغربية، هي ببساطة فكرة خيالية.

الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي

لقد تفحصنا الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي في الفصل السادس، وهدف الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي هو جعل العالم «أو أكثر ما يمكن منه» غربياً، وبالقوة إذا دعت الضرورة، وتُشجَّع الديمقراطية والرأسمالية في كل مكان، وحين يكون هناك تبرير قابل للتصديق من أجل غزو البلدان العنيدة، يجب أن تُحتل إلى أن يتم تأمين الديمقراطية، والرأسمالية.

الكثير من الغربيين يشارك في هذه الافتراضات:

- الغرب مختلف عن البقية.
- الغرب متفوق في نواح مهمة على معظم البقية.
- الغرب له عذر في فرض حضارته على البقية، لجعل العالم مكاناً أفضل، وأكثر سلماً، أو بساطة لحماية الغرب من أنظمة الحكم المتطرفة.

- إذا أعطي الغرب أفقَ وقتٍ طويلٍ كافٍ، وأعطي السياسات الصحيحة، فإن الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي يستطيع أن يعمل.

هناك ثلاث قضايا تتصل بالاستعمار الإمبراطوري الليبرالي، **الأولى**: هل هو منسجم مع القيم الغربية؟ **والثانية**: هل هو عملي؟ **والثالثة**: هل يستطيع النجاح؟

هل الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي ليبرالي؟ بالتأكيد، هناك الالتزام بإدخال الديمقراطية والمؤسسات الليبرالية، ولكن مثلما تُبَيِّن روسيا وإيران عملياً، فإن من الممكن أن يكون لديهم انتخابات حرة بشكل متسامح من دون أن يكون لديهم مجتمع ليبرالي، وليس هناك شك في أن الرأسمالية يمكن أن تفرض فرضاً ناجحاً من الأعلى، ومن الممكن خلق الازدهار من دون عمل تلقائي مستند إلى المبادئ تقوم به أعداد كبيرة من الأفراد، ولكن ليس مجتمعاً ليبرالياً، فإن حضارة النموذج الغربي، أو الحرية لا يمكن أن يعاد إنتاجها إلا من خلال أعمال أفراد كثيرين نشيطين، وقادرين، وواثقين، أفراد محفوزين ومدفوعين قدُماً بطبيعة معتقداتهم، وأعلى أجزاء الحضارة الغربية قيمة «الأجزاء البارزة اليوم من جراء غيابها، كما في روسيا، أو باكستان، أو نيجيريا، أو زيمبابوي، أو العراق» لا تتعلق بالثروة أو بالديمقراطية الرسمية، ولكنها تتعلق بإحساس الأفراد بقيمتهم الخاصة ومسؤوليتهم، فمثل هذه الحضارة لا يمكن فرضها، إذ إنها تستطيع أن تتصاعد كالفقاعات من الأسفل إلى الأعلى،

مستندة إلى الثقة، والتصديق، والإيمان الشخصي العميق بالمساواة، والمبادرة، والمسؤولية.

والاستعمار الإمبراطوري الليبرالي لا يقود إلى الحرية، فهو قد يؤدي بدلاً من ذلك إلى جعل بروز المجتمع الليبرالي أبطأ، وأعسر، وأقل احتمالاً، فالمجتمع الليبرالي أكثر احتمالاً في البروز، حين تُترك البلدان وحدها لتجد خلاصها الخاص بها، من خلال الكفاح والتعاون المشترك، وإفريقية الجنوبية حالة معلِّمة هنا، ففي العام 1990، قلة جداً من الناس هم الذين تنبؤوا ببروز مجتمع ليبرالي، ومع ذلك فقد وصل، بسبب أعمال سكان إفريقية الجنوبية، فطبعاً، نجحت في كل الأحوال حتى في أحلك أيام التمييز العنصري، والعديد من العناصر من الحضارة الغربية، التي تتمثل في سياسيين منشقين، وصحافيين، ومؤلفين، وقادة أعمال تجارية وصناعية، نجحت في أن تبقى على قيد الحياة، والمؤثر، على كل حال، هو الكيفية التي صنع بها سكان إفريقية الجنوبية التحول، لا إلى الديمقراطية وحسب، بل إلى المصالحة أيضاً، وإلى المجتمع الليبرالي، ولقد فعلوها بالطريقة الوحيدة التي كان يمكن أن تثبت على الأرجح، وذلك بتولي المسؤولية عن بلدهم الخاص بهم، وعن ماضيهم ومستقبلهم.

إن الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي لن يهزم قضية الحرية فقط في الأماكن التي يُفرض فيها، بل هو سيميل أيضاً إلى هدم الحرية في قاعدتها الوطنية، وإن الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي يحتاج إلى العضلات العسكرية الضخمة؛ لتنتشر في الأرض المعادية، ولذلك

ثلاث نتائج محتومة، وهي قد بدأت من قبل بالحدوث، **الأولى**: إن الحرب ستميل إلى جعل المثل العليا الليبرالية خشنة وخسيسة، داخل القوات العسكرية الأمريكية، وداخل الإدارة الأمريكية، وفي البلد بمجملها، حين تأخذ الحقوق المدنية المكان الثاني بالنسبة إلى الأمن الوطني، (الظاهرة نفسها يمكن ملاحظتها إلى درجة أقل في بريطانيا المعاصرة)، **والثانية**: هي أن أمريكا، وهي تقليدياً «وطن الأحرار» والصديق الطبعيّ وحليف الشعب الذي يكافح في سبيل الحرية في كل مكان حول الكرة الأرضية، سوف تصير أقل فأقل شعبية، **والثالثة**: هي أن عدد الإرهابيين المعادين لأمريكا ودرجة كراهيتهم لأمريكا سوف تتضاعف. ومع زيادة الإرهاب، فإن الإجراءات اللازمة لمعالجة الإرهاب تميل إلى أن تصير غير ليبرالية أكثر فأكثر، وهذه الدائرة الشريرة تتجدد، وتشتد.

والقضية الثانية: هي أن الاستعمار الإمبراطوري يحتاج إلى مستعمرين دعاة إمبراطورية، وعلى الرغم من أن هناك مفكرين أمريكيين وبريطانيين كذلك، وقلة من صناع السياسة الأمريكية، ممن يحبذون مد الإمبراطورية الأمريكية في جميع أنحاء العالم، فإنه ما من إمبراطورية في العالم قد سبق لها أن غيرت قلوب وعقول شعوبها الخاضعة من دون استغراق عشرات، وعادة مئات من السنين لتفعل ذلك، ولم يكن ذلك من دون ملاكات (كوادر) كاملة من الاستعماريين المستوطنين المكرسين لغرس حضارتهم في أذهان الشعب الذي حكموه، وإن إقامة نظام حكم دمية أمر سهل، ولكن ليس من المستطاع فرض ديمقراطية محلية صلبة أو إقامتها، إذ يجب عليها أن تنمو نمواً

طبعيّاً، وتُشجع بالقدوة، وبالمغتربين الذين يؤمنون إيماناً أصيلاً بها، فأين هم هؤلاء الأمريكيون المغتربون، الراغبون في الخدمة طوال عقود، بعيداً عن الوطن لترقية الديمقراطية في إفريقية، أو في الشرق الأوسط أو في آسيا؟ إنهم غير موجودين، على الأقل بالأعداد الكافية، مع التكريس المطلوب على المدى الطويل.

والمشكلة الأخيرة مع الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي هي أنه ليس هناك سوق له، فلو وجد العرض من الاستعماريين دعاة الإمبراطورية، فإن الاستجابة الراغبة من السكان المحليين ستكون مطلوبة، وذلك محض خيال، إذ الاستعمار الإمبراطوري فكرة قد ولى زمانها، ففي القرن التاسع عشر نفسه، وفي مطالع القرن العشرين، حين كان هناك عشرات الآلاف من البريطانيين المكرسين للاستعمار الإمبراطوري مع آخرين من الاستعماريين الأوروبيين، فإن الاستعمار الإمبراطوري حقق درجات من الفشل أكثر إلى حد أبعد مما حقق من النجاحات، وبرغم كل القوة، وكل الحوافز المالية في العالم، فإن الثقافة الأوروبية، في كل حالة من الحالات تقريباً، لم تختلط مع من يكفي من الشعب؛ لتجعلها تدعم نفسها بنفسها بعد انسحاب الأوروبيين، وفي الوقت الذي تحركنا فيه أكثر فأكثر في العالم الذي كانت فيه نقاط ضعف الثقافة الغربية واضحة، وكانت فيه دوافع بناة الإمبراطورية الغربية موضع عدم الثقة بشكل متزايد، فلابد أن يكون واضحاً لكل واحد يملك مسكة من العقل السليم أن الشعوب خارج الغرب لن تسمح للقواعد الأخلاقية الغربية بأن تفرض عليها.

قال جورج أورويل: إن بعض الأفكار غبية إلى الحد الذي يجعل المفكرين فقط قادرين على الإيمان بها، وكانت الشيوعية - مثلاً - واحدة منها، والاستعمار الإمبراطوري الليبرالي مثل آخر، وإن الناس خارج الغرب سوف يختارون ما يريدون من الغرب، وما يكون متلائماً مع معتقداتهم الموجودة سابقاً، وتخدم طموحاتهم، ويطرحون البقية جانباً، وإن أي محاولة منظمة لفرض طريقة الحياة الغربية وحدةً واحدة، مصيرها لا إلى الفشل وحسب، بل إلى أن تؤخر التبني العاقل، والجزئي لبعض عناصر التفكير الغربي من قبل الناس الذين يمتلكون عقولاً، وثقافات تخصهم هم.

العالم ـ أمريكا

منذ العام 1918، وإلى حد أكبر منذ العام 1945، ولكن بشكل أكثر تحديداً منذ العام 2001، كان هناك دعم متزايد في دوائر السياسة الأمريكية للرأي القائل: إن سلام العالم وازدهاره يتطلبان قيادة دولية نشيطة، وتدخلاً من الولايات المتحدة، وهذه العقيدة، التي ندعوها العالم ـ أمريكا، هي فعلياً استعمار إمبراطوري جُرِّد من زخارف الديمقراطية الثقيلة.

إنها عقيدة ليست من دون مثلها العليا، وليست مصممة بكاملها لترقية المصالح الأمريكية، إذ إنها تعترف بالسيطرة العسكرية الساحقة للولايات المتحدة، التي تعتبر أقوى من السبع عشرة أمة التي تليها إذا وضعت كلها مجتمعة، فإنها ترى الحاجة إلى تلك القوة؛ لتستخدم استخداماً مسؤولاً لصيانة النظام الجيد، والاحتشام عبر العالم.

أحياناً تستخدم هذه العقيدة بطريقة تسيطر على الإعجاب العام «مثل ما حدث على سبيل المثال في التدخل لإنقاذ الشعب البوسني من الإبادة العرقية، ولكن الرأي الذي يرى العالم» أمريكا يذهب بعيداً إلى ما وراء التدخلات الإنسانية.

إن عرض المنظمات الدولية التي ترعاها أمريكا، من البنك الدولي إلى الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (غات) إلى صندوق النقد الدولي إلى عشرات من البيروقراطيات الدولية ذات الأسماء المكونة من الحروف الأولى من أسمائها، يصوِّر نظاماً عالمياً شاملاً اقتصادياً، وسياسياً، وإنسانياً، يتبع الأنماط الأمريكية بشكل عام، والرسالة بسيطة، هناك طريقة شاملة، وحديثة واحدة لإدارة الأعمال والجغرافية السياسية، وهي الطريقة الغربية: عقلانية، ومستندة إلى السوق، وكونية، لا تسمح بأي حدود لتحدد نطاق تأثيرها.

ورؤية العالم ـ أمريكا تقدم الأحكام الضمنية الآتية:

- الغرب يمثل الحداثة، وهو متفوق على البقية.
- يجب أن يكون هناك صيغة عالمية شاملة تستند إلى النمط الغربي، وعلى وجه الخصوص النمط الأمريكي.
- يجب على الغرب أن يجعل البقية تنسجم مع هذا النمط.
- يجب على بلدان الغرب أن تقلل تنوعها الثقافي، والسياسي، وتنسجم مع هذا النمط، وإذا دعت الضرورة يجب التضحية بالمصالح المحلية؛ لكي تتطابق مع طبعة شاملة عالمية.

- الطبعة أمريكية بشكل يمكن التعرف به وتحديده، ولكنها تتطلب من الولايات المتحدة أن تتخلى عن خيار العودة إلى القومية الضيقة، أو الانعزالية، وبشكل فظ، العالم ـ أمريكا سيصير وسيبقى الشرطي الرئيس للعالم، وضمن قيد قوى السوق، سوف يؤثر العالم ـ أمريكا تأثيراً ثقيلاً على العوامل الثابتة الاقتصادية للعالم (على سبيل المثال، المعروض النقدي، ومعدلات الفائدة، ومعدلات الصرف، وقواعد التبادل التجاري).

العالم ـ أمريكا لم يصل حتى الآن بشكل كامل، ولا يعتبر مجيئه محتوماً، أو مرجحاً فإنه سؤال مفتوح، ودَعْ جانباً إمكانية أن تضعف أمريكا على مدى القرن القادم بالنسبة إلى القوى الأخرى، وهناك أيضاً قوى قوية داخل أمريكا نفسها تدافع عن أمريكا «القومية» ضد النخب «الدولية» و«الاستعمارية»، وقوى شعبية مؤثرة في كلا الحزبين السياسيين.

في العام 2004، اختتم صامويل هنتنغتون كتاباً عن هوية أمريكا بكلمات مؤثرة: إن عناصر مهمة من النخب الأمريكية ميالة إلى أن تصير أمريكا مجتمعاً دولياً، وترغب نخب أخرى لأمريكا أن تتولى دوراً استعمارياً إمبراطوريا، والكتلة الكاسحة من الشعب الأمريكي ملتزمة ببديل قومي، وبحفظ الهوية الأمريكية التي وجدت طوال قرون وتقويتها، فأمريكا تصير هي العالم، والعالم يصير هو أمريكا، إذ أمريكا تبقى أمريكا، دولية؟ استعمارية إمبراطورية؟ قومية؟ إن

الخيارات التي سيختارها الأمريكيون ستشكل مستقبلهم، بوصفهم أمة، وستشكل مستقبل العالم[1].

ويلاحظ هنتنغتون أن الجمهور الأمريكي أكثر قومية، وأقل ميلاً إلى «عبور القومية» من زعمائه السياسيين، وزعمائه في الأعمال التجارية، والصناعية: ... في ستة استطلاعات للرأي من العام 1978 إلى العام 1998، فضَّل 96 إلى 98 بالمئة من نخب السياسة الخارجية أن تأخذ الولايات المتحدة دوراً نشيطاً في الشؤون الدولية، ولكن 59 إلى 65 بالمئة فقط من الجمهور فضل ذلك ... لقد كان الجمهور أكثر تردداً بكثير من القادة في استخدام القوات العسكرية الأمريكية للدفاع عن بلدان أخرى.

وهنتنغتون، إذاً، ضد ما نسميه العالم ـ أمريكا، وهو بلا شك يتحدث نيابة عن كثيرين، وربما نيابة عن الأغلبية، من الأمريكيين العاديين[2]، ومن الواضح أيضاً أن كلاً من الزعماء السياسيين لأوروبا

(1) هنتنغتون (2004).

(2) توحي استطلاعات الرأي، أن الجمهور الأمريكي، في الأوقات العادية، لا يحب الحروب الأجنبية، وحين تكون هذه الحروب بلا تكلفة نسبياً فقط، أو حين يكون هناك إحساس قوي بأن أمريكا نفسها مهددة بأعداء خارجيين، حين ذلك يميل الأمريكيون إلى تفضيل الحرب، ومن هنا يفضلون دوراً استعمارياً إمبراطوريا، ولقد أنتجت الانتخابات الرئاسية الأمريكية للعام 2004 أغلبية شعبية ضئيلة كانت مفضلة للرئيس صاحب المنصب، الذي جادل، ضد توازن الرأي المطلع، في أن 11/9 احتاجت إلى حرب في العراق، وفي غياب الاعتداءات الإرهابية، أي، في الظروف العادية، فإن من غير المرجح، على الرغم من أنه ليس مستحيلاً أن يفضل الجمهور الأمريكي مدخل العالم =

وشعوب أوروبة يميلون ميلاً قويماً ضد خيار العالم ـ أمريكا بأغلبيات ضخمة، ولكن ذلك لا يعني أنه لا يمكن أن يحدث، فالبنية التحتية العسكرية والتنظيمية موجودة في مكانها من قبل، ونحن لا نعني «شوربة الحروف»، أي، وفرة كلمات المختصرات، للبيروقراطيات الدولية والوكالات «فوق القومية» الأخرى التي ترعاها أمريكا، التي منها صندوق النقد الدولي الذي هو مجرد أوضح مشغِّل فعال للعالم ـ أمريكا[1]، ونحن أيضاً نعني قوة أمريكا العسكرية الكاسحة تماماً وحضورها، وكما يقول فيرغسون:

قبل نشر القوات العسكرية من أجل غزو العراق، كانت القوات العسكرية الأمريكية تمتلك 752 منشأة عسكرية في أكثر من 130 بلداً، وكانت أعداد مهمة من القوات العسكرية الأمريكية مرابطة في 65 بلداً من هذه البلدان ... فإذا كانت القوة العسكرية هي العنصر الجوهري للإمبراطورية، فإن من الصعب، آنئذ أن نتخيل كيف يستطيع أي شخص أن ينكر الشخصية الاستعمارية الإمبراطورية للولايات المتحدة اليوم[2].

= أمريكا وإن المشاركة الأمريكية في حروب ما وراء البحار كانت قد تم «بيعها» دائماً إلى جمهور أمريكي متردد من قِبَل نخبه السياسة أكثر، مما هي ناشئة من قومية شعبية قوية.

(1) كفاءته، فهناك حالات عديدة فحَص فيها المراقبون الموضوعيون آثار «نصيحة» صندوق النقد الدولي لبلدان العالم الثالث، ووجدوها نصيحة لا ترتفع إلى مستوى المعايير أو التوقعات، وصندوق النقد الدولي فعال في أمر الدول ذات السيادة في جميع الجوانب، لا في جعل اقتصاداتها ناجحة.

(2) فيرغسون (2004).

إن أمريكا تمتلك البرنامج والقوة اللازمين من أجل لعب دور العالم ـ أمريكا، ومن السهل أن نرى كيف أن مدخل العالم ـ أمريكا الكامل الصفات يمكن أن يظهر، وتخيل أن التأثيرات الأمريكية الاقتصادية والثقافية مستمرة بالانتشار على نطاق واسع، وأن التجارة الحرة الشاملة ـ التي تحابي القوي حتماً ـ قد فُرضت في كل أنحاء العالم، وتخيل الأصولية الأمريكية، وقد صارت أكثر تأثيراً مما كانت عليه، وذلك عن طريق تشكيل كتلة سياسية تسهم في دعم أكثر مرشحي الرئاسة محافظة، وأن الأصوليين، وقد صاروا كذلك أشد تعصباً بشكل واضح، وأن هناك هجمات متجددة بالقنابل على مدن الولايات المتحدة، وأن الإجراءات المضادة للإرهابيين تحدِّد الحريات المدنية تحديداً متزايداً، وأن سلطة الرئاسة ووكالاتها تتصاعد أعلى فأعلى، وأن هجرة غير البيض قد أوقفت، وقد تم استئصال الجريمة عن طريق وسيلة سهلة، وهي سجن أي شخص مجرم، أو قد يصير مجرماً، ويكون السلام الأمريكي مفروضاً في كل أنحاء الكرة الأرضية، وأن أنظمة حكم أمريكية من الدمى تقام في الكثير من بلدان الشرق الأوسط والبلدان الآسيوية، وتثبت أنها أكثر بقاء من أنظمة الحكم التي كانت تقام، حين كان الغرب يشعر أنه ملزم بمحاولة إدخال الديمقراطية، وبالرغم من كل ذلك، فإن الشباب الناقمين يزيدون نمو صفوف الإرهابيين المعادين لأمريكا.

ومع السيادة الأمريكية العسكرية، والعلمية، والاقتصادية، يشكل مدخل العالم ـ أمريكا حضارة جديدة وطويلة البقاء، وبقسوة لا تعرف

الرحمة مثل روما الإمبراطورية، قد تحكم رؤية العالم ـ أمريكا معظم العالم، أو ربما تحكم كل العالم، إلى جانب حلفائها في أوروبة، واليابان، وكوريا، وتفرض قوى مثل الصين، وروسيا، والهند مشكلات كبيرة، ولكن، وبعد سنوات قليلة من النزاع الدموي، سوف يمتد السلام، وسهولة الانقياد، والازدهار إلى كل الكرة الأرضية، وإن مدخل العالم ـ أمريكا بقدر ما يبدو غير قابل للتصديق اليوم، قد يحير نقاده، وينقذ كوكب الأرض عن طريق الفرض الاستبدادي المطلق لممارسات «خضراء» صارمة إلى درجة عالية وشاملة للعالم، تكسب بها أمريكا استحسان البيئيين الجادين في كل مكان، وستكون شوارع كل مدن العالم آمنة للسياح من كل لون، والإصابات الوحيدة ستكون هي الحرية، والعديد من الحضارات التي تستحق الاحترام حول العالم، ومن جملتها الحضارة الغربية.

الغرب القلعة

و«النموذج العقلي» الرابع للغرب والبقية هو نموذج من النادر أن يوضح علانية، فهو في الغالب ضمني، وأحياناً صريح في خطابة وسياسات الأمريكيين الشعبيين والانعزاليين، والقوميين، والكارهين للغرباء في عدة بلدان أوروبية، وهؤلاء السياسيون «الهامشيون» أهم مما قد يبدون، فإنهم يقولون في الغالب ما ترك من غير قول في الدوائر المؤدبة، ولكن يفكر فيه العديدون، ومن جملتهم بعض صناع القانون في التيار الفكري العام، و«الثلث غير الليبرالي» الذي يقال: إنه يكمن داخل معظم جمهور الناخبين، فالغرب القلعة يعني ضمناً «تباً للبقية».

- الغرب متفوق على البقية.
- البقية تعني الإزعاج للغرب.
- اعزلوا البقية عن الغرب.

المحتجون من «المعادين للعولمة» يُوبِّخون الغرب بسبب استغلاله للعالم الثالث، ولكن السياسيين المنادين برؤية الغرب القلعة هذه يقلبون الاحتجاج على رأسه، فيلاحظون بشكل صحيح أن كل بلد غربي يقوم بمعظم تبادله التجاري مع بلدان متقدمة أخرى، وهكذا فالحاجة إلى التكامل مع العالم الثالث هي حاجة أقل بكثير مما يُظن عموماً، وعلى الرغم من أن نموذج الغرب القلعة هو من الجناح اليميني، فهو مختلف جداً عن الاستعمار الإمبراطوري الشامل لنموذج العالم ـ أمريكا.

إن سيناريو الغرب القلعة يسير، وقابل للتصديق، فتحت الهجوم الإرهابي المتجدد، والنمو في السكان المهاجرين، يتراجع الغرب إلى نفسه لحماية حضارته، وكما هو الحال مع نموذج العالم ـ أمريكا، فإن الهجرة إلى الغرب تتوقف عملياً، ولتجنب النزاع مع بقية العالم، يتم التخلي عن كل المحاولات الهادفة إلى نشر الديمقراطية والرأسمالية، ويتوقف الغرب عن محاولة مد التبادل التجاري إلى ما وراء حدوده، ولا يُشجع الانتشار التقاني، فهناك دفاع مخيف عن أرض الغرب، ويتم الابتعاد عن المغامرات العسكرية، وفي بناء الغرب لقلعته، وفي إهمال

بقية العالم، في الواقع، يأمل مهندسو رؤية الغرب القلعة في أن النمو في سكان بقية العالم واقتصاداته سوف ينهار، مخففاً الخطر البيئي.

قد لا تعمل الإستراتيجية، فبالنسبة إلى البداية، سيكون هناك حاجة مستمرة إلى الاشتراك مع بقية العالم من أجل المواد الأولية والموارد، وزيادة على ذلك، فمثلما هو الحال مع الجماعات المحمية إلى درجة عالية ـ بالبوابات ـ في الأماكن المضطربة، فسوف نشهد على الأرجح خوفاً متنامياً، وفقداناً للأمن، وجنون العظمة في الداخل، ونشهد خيبة أمل متزايدة، وحسداً، وغضباً في الخارج.

الدولية (الكوزموبوليتانية)

وجهة النظر الدولية، مثلها مثل الشمولية الغربية، ترى أن العالم سينتهي عاجلاً أم آجلاً بحضارة واحدة مهيمنة وحصرية حديثة تقريباً، ولكن دعاة الدولية، خلافاً لدعاة الشمولية الغربية، يرون الفكرة التي تعد أسعد، وأكثر توازناً هي أن ثقافات العالم سوف تختلط، ويخترق بعضها بعضاً، وفي النهاية سوف يلتقي الشرق والغرب، وسيكون العالم عائلة واحدة كبيرة :

- الشرق يصير الآن مثل الغرب، ومثل ذلك في الاتجاه المعاكس.
- الطموحات الإنسانية شاملة، والاختلافات الثقافية هي مجرد عوائق معتدلة فقط على الطريق إلى الحداثة، والتقاليد، والأعراف الشاملة.

- هناك ميزات لكل من الطريقين الغربي والشرقي في معالجة القضايا، وفي النهاية سيكون السوق واضحاً في تفضيل الطرق التي تكون أكثر مساعدة في التوجه نحو السعادة الإنسانية.
- فإذا افترضنا التلاقي الثقافي، فليس هناك حاجة إلى أي إستراتيجية معينة غربية نحو البقية (أو في الاتجاه المعاكس).

وعلى الرغم من أن الغربيين قد لا يوافقون موافقة كاملة على هذه الاقتراحات، فإن معظم الحضريين والمتمدنين منهم قد كانوا متأثرين تأثراً عميقاً بوجهة النظر الدولية، ويبين ريتشارد ئي. نيسبت في كتابه جغرافية الفكر، كيف أن طرق التفكير الشرقية والغربية مختلفة، ولكنه أشار إلى أن هناك بعض العلامات على التلاقي.

لم يسبق أبداً أن كان هناك اهتمام أكبر بين الغربيين في الفلسفة الشرقية، وبالتخصيب المتبادل بين الأفكار، من بوذية زن إلى حركة العقل، والجسد، والروح، ومن مقاومة غاندي السلبية غير العنيفة إلى تكتيكات مارتن لوثر كنغ، ومن الماركسية إلى الماوية، ومفاهيم مثل «الكارما» (المصير)، أي، تأثير أفعال الإنسان على مستقبله حسب الهندوسية والبوذية، قد تغلغلت في معجم الملايين في الغرب، في الوقت الذي عُدِّلت فيه مفاهيم الرأسمالية تعديلاً عميقاً في أماكن، مثل اليابان والصين لتقترن بقوة السوق مع مجتمعات أكثر تراتبية هرمية وجماعية تعاونية، وإن أحد أهم التجديدات العلمية الغربية منذ العام 1970، وهو الدراسة المتعددة الاختصاصات لموضوع

«الفوضى» و «التعقيد»، يمكن النظر إليه، بوصفه نتيجة للتفكير الكليِّاني ـ الشرقي ـ، وهو يبين كيف تبرز النظم المعقدة وتنسجم، وتخلق شيئاً أكبر من أجزائها المكونة لها، ومختلفاً عنها[1].

وعلى مستوى أقل تمجيداً، ولكنه ربما كان أكثر تأثيراً، قلدت الثقافات المختلفة تقليداً سعيداً ـ أو على الأقل تقليداً ساخراً (كاريكاتورياً) ـ مطبخ بعضها بعضاً، فلقد استورد الغرب الطعام الآسيوي والطعام الانتقائي المتنوع المدعو «عالمي» (أي، غير غربي)، في مقابل تصدير لا يلين للهمبيرغر، والبيتزا، والمشروبات غير الكحولية ذات العلامات التجارية، وقطع الدجاج المقلي المنتجة من خط الإنتاج الآلي، وبلا شك، كل تبادلات الناس، والمنتجات، والمقترحات بين القارات تفعل شيئاً؛ لتوسيع العقل مثلما تعمل على توسيع القاعدة، وتساعد على جعل العالم مكاناً أكثر تسامحاً، مثلما تجعله مكاناً أقل تلويناً كذلك.

ومع ذلك، فهناك شيء ما مصطنع نوعاً ما بشأن الأطروحة الدولية، فليس هناك دليل على أن الهوة بين طرق التفكير الغربية، وغير الغربية تصير أصغر، حتى في الاقتصادات الرأسمالية المتطورة تطوراً كاملاً، مثل اليابان، فالاستهلاكية، وهوليوود، والعلامات التجارية الغربية، والموسيقا الشعبية تقوم بعمل خطوات كبيرة خارج الغرب، ولكن الجاذبية كبيرة إلى هذا الحد؛ لأنها - بدقة - سطحية،

(1) انظر ريتشارد كوك (2001) القوانين القومية للأعمال، دبلدي، نيويورك، الفصل 10، جيمس غليك (1987) الفوضى، ليتل براون، نيويورك، إم. بيتشيل وولدروب (1992) التعقيد، سايمون أند شوستر، نيويورك.

وهي حل سريع للحداثة، لا يتطلب أي ملاءمة للمواقف العميقة من الحياة، والمجتمع، ولا حاجة إلى التصرف على نحو مختلف.

واستيراد الأفكار الشرقية، والأديان بشكل خاص، إلى الغرب هو، في معظمه، سطحي بشكل مساو، وغطاء خفيف من الروحانية التي يسهل اكتسابها، وهي محاكاة مضحكة للدين الشرقي الحقيقي، والذوق الغربي الميال إلى الخبرة الأجنبية الجمالية والدينية ليس جديداً، ويعود في تاريخه على الأقل إلى أواسط القرن التاسع عشر، وما غيَّر هذا الذوق المواقف الغربية مثقال ذرة ـ والاهتمام الأكبر من الاهتمام السابق بالأديان البوذية، والشرقية الأخرى، والذي يمثل التأمل الهادئ ووعي العالم فيما وراء نفس المرء قد تطابق مع فردية غربية أكبر مما سبق، ومع تسارع مطرد في إيقاع الحياة وخطوها، ولكلمات أوزولد إشبنغلر من العام 1918 رنين يتردد اليوم: ... نحن نملك في العالم الأوروبي اليوم خداع المؤمن بغيب السحر، والتنجيم، وخرافة مكر ثيسوبس، والعِلْم الأمريكي المسيحي، والبوذية غير الصحيحة في غرف الزوار، وأعمال الفنون، والحرف الدينية (وهي في ألمانيا أسرع نشاطاً منها في انجلترا) التي تعنى بحاجات جماعات، ونظم دينية من رأي قوطي، أو تقليدي متأخر، أو عاطفة تاوية، وهي في كل مكان مجرد لَعِب بالأساطير التي لا يصدق بها أحد فعلاً، وتذوقٍ للأنظمة الدينية التي يؤمل أنها قد تملأ الفراغ الداخلي، فالمادية ضحلة وصادقة، وأما الدين الزائف، فضحل وغير صادق[1].

(1) إشبنغلر (1991)، ص 346.

النظرية الدولية تفشل فشلاً كاملاً في أن تفهم التأثير المغيِّر العنيف الذي تؤثر به الحضارة الغربية على معظم المجتمعات غير الغربية، ومنذ العام 1850، وجدت هذه المجتمعات الأخيرة بشكل متزايد أن من الصعب عليها أن نتجاهل الغرب، وأفكاره، وممارساته، وذلك على الأقل بسبب الرفاهية، والتقدم في عدد سنوات العمر المتوقعة التي يقدمها الغرب، ومع ذلك فقد ثبت، لمعظم غير الغربيين، أن من الصعب عليهم أو من المستحيل أن يصيروا غربيين حقيقة، وذلك مثلما كان من المستحيل بالضبط على لورنس العرب نفسه أن يصير عربياً حقيقة، وبالنسبة إلى الكثيرين من الناس خارج الغرب، فما زال هناك شيء ما غريب، بل مثير للاشمئزاز حول الثقافة الغربية والفردية الغربية.

يحب دعاة الدولية أن يستنتجوا ضمناً أن التبادل الفكري بين الغرب والبقية يسير في طريق باتجاهين، وهو جوهرياً تبادل متساو للتجديدات الغربية وغير الغربية، ولكن هذه ببساطة ليست هي الحالة، فلقد كتب بيتر واطسون حديثاً، وهو مراقب منصف حريص، تاريخاً للأفكار في القرن العشرين، ويخبرنا بالقول «حين تم تصور العمل كان قصدي أن أجعل النص دولياً، ومتعدد الثقافات إلى أكبر قدر ممكن» وثبت أن هذا الأمر كان أصعب مما توقع:

بدأت بالعمل باتجاه محدد لي من خلال العلماء الذين تخصصوا في الثقافات الكبيرة غير الغربية: الصين، واليابان، وإفريقية الجنوبية والوسطى، والعالم العربي، وقد صدمت (وهي كلمة ليست قوية بما

يكفي) إذ وجدت أنهم كلهم (وأنا لا أبالغ، لم يكن هناك أي استثناءات) قدموا الجواب نفسه، وهو أن الثقافات غير الغربية، في القرن العشرين، لم تنتج أي كتلة من العمل يمكن أن تقارن مع الغرب... نسبة جيدة من هؤلاء العلماء كانوا هم أنفسهم... غير غربيين... وأكثر من عالم أفصح عن نقطة هي أن الجهد الفكري الرئيس لثقافته (غير الغربية) في القرن العشرين كان يتمثل في الوصول إلى اتفاق مع الحداثة، والتعلم كيف يعالج بنجاح الطرق الغربية، والأنماط الغربية للفكر، ويرد عليها، وبشكل رئيس الديمقراطية والعلم.

طبعاً، هناك كتاب صينيون مهمون، ورسامون من القرن العشرين، ونحن كلنا نستطيع أن نفكر بمخرجي الأفلام اليابانيين المهمين، وبالروائيين الهنود، وبالمسرحيين الأفارقة... ولكن، لقد قيل لي تكراراً: إنه لا يوجد مكافئ صيني في القرن العشرين، ولنقل: لما فوق الواقعية (سريالية) أو للتحليل النفسي، ولا يوجد إسهام هندي يضاهي الوضعية المنطقية، ولا يوجد مكافئ إفريقي لمدرسة حوليات التاريخ، وأي قائمة حرصتَ على أن تعملها لتجديدات القرن العشرين، ولتكن اللَّدَائِن، أو المضادات الحيوية، أو الذرة، أو روايات تيار الوعي، أو الشعر الحر، أو التعبيرية المجردة، فإنها بأكلها تقريباً غربية[1].

إن وجهة النظر الدولية ساذجة على نحو يائس، وإن نماذج الفكر والعمل متجذرة تجذراً عميقاً في التاريخ، والجغرافية، والدين، وبنى السلطة في مجتمعات معينة، وليس بالمستطاع أن يتم تبادلها حسب

(1) واطسون (2000).

الإرادة من خلال الاستهلاكية، أو التغيرات الثقافية، أو التفكير المعبر عن الرغبات.

التعايش والجاذبية

إن الخيار الذي نعتقد أنه يتلاءم أفضل تلاؤم مع الحقائق الواقعية الثقافية هو تركيبنا الخاص بنا، وهو إستراتيجية التعايش والجاذبية، وهو خيار يراعي :

- هناك العديد من الحضارات غير الغربية المختلفة، وكلها مختلفة جوهرياً عن الحضارة الغربية.
- وبحسب المعيار الذي يراه الغربيون عزيزاً، فإن الحضارة الغربية انتصار مذهل، ولقد كانت أنجح من أي حضارة أخرى في زيادة رفاهية مواطنيها، ومدة العمر، والكرامة، والإبداع، والحرية الشخصية، وفي نصف القرن الماضي، زادت الآمال بالنسبة إلى الغربيين في حياة حرة من دون ويلات الحرب.
- والمظهر السلبي للحضارة الغربية هو تمزيقها الذي لا يفتر للتقاليد، ولأنماط الفكر المستقرة، وللسلطة الدينية والعلمانية، وللاستقرار الشخصي والاجتماعي، ولمحيط بيئة الكوكب الأرضي.
- لقد تطفل الغرب على حضارات أخرى بشكل ضخم، بالقوة وبالتوسع الاقتصادي، ومن خلال قواها غير المسبوقة في الاتصالات، ولم تتطفل أي حضارة أخرى على الغرب بطريقة يمكن مقارنتها طوال 500 سنة على الأقل.

- يقدم الغرب منافع ضخمة، وتكاليف ضخمة لغير الغربيين، والمنافع بالدرجة الرئيسة في شكل فرصة شخصية وحرية، والتكاليف بالدرجة الرئيسة هي التمزق الاجتماعي، والاضطراب الشخصي، والتحدي للمعتقدات والهويات الراسخة.

- ومع أنه ما من حضارة غير غربية تقدر منافع الغرب عالياً، بمثل ما يقدرها الغربيون، وأن كل الحضارات غير الغربية تقدر التكاليف التي يأتي بها الغرب تقديراً أثقل بكثير من تقدير الغربيين لها، فإن الحضارات غير الغربية المختلفة، والناس المختلفين، والجماعات المختلفة داخل تلك الحضارات، يزِنون منافع التغريب وتكاليفه وزناً مختلفاً، وتنقسم الحضارات إلى ثلاثة أصناف رئيسة:

* الحضارات التي تعتبر مستقبلة نوعاً ما على الأقل للحضارة الغربية، بسبب التعرض التاريخي لها، وبسبب الخصائص الثقافية و/أو العرقية المشتركة (الأمريكيون اللاتين، الروس/ الأرثوذكس، بعض الأفارقة).

* الحضارات التي تقدر العلم والنمو الغربيين، وهي مفتوحة للمعرفة وللمهارة الغربية، ولكنها تريد أن تحتفظ بثقافتها وقيمها الخاصة (اليابانيون، والصينيون، والبوذيون، وربما الهندوس، وبعض الأفارقة).

* الحضارات المعارضة للحضارة الغربية معارضة جوهرية، أو بشكل عنيد (بعض الإسلاميين).

● في كل حضارة هناك أقلية (أحياناً أقلية قليلة جداً) من الأفراد الطامحين الذين يتماهون مع القيم الغربية، وهؤلاء الأفراد يسعون على الأرجح إلى الهجرة إلى الغرب، وهذه العملية، على الأقل إلى زمن، تسحب معظم الموالين للغرب من غير الغربيين، وتجعل المجتمعات غير الغربية أقل موالاة للغرب.

ونحن نعتقد أن كل هذه النقاط قد ثبتت بالدليل الذي قد عرضناه، أو هي استنتاجات معقولة منه، فإذا كان هذا مقبولاً، فما الذي يمكن للغرب أن يفعله، بالنسبة إلى البقية ليرتقي بمصالحه وبأمنه؟ نحن نعتقد أنها ثلاثة أشياء:

الأول: احترام التنوع، فإن العالم لن يصير غربياً. وكذلك، لا الغرب، ولا البقية، سيصير هو العالم، فالتنوع هنا ليبقى، فإذا كان التفاهم المشترك هو الذي سيسود، فإن الغربيين يجب أن يكونوا محترِمين له، وأن يتوقفوا عن افتراض أن غير الغربيين يمتلكون، أو يجب عليهم أن يمتلكوا القيم نفسها، وإن أقصى ما يستطيع الغرب أن يتوقعه من حضارات معينة هو أنها تتسامح مع طرق الغرب، ولو كانت تمقتها بشدة، ونحن لا نستطيع أن نتوقع مثل هذا التسامح ما لم نتسامح نحن أيضاً مع ما نمقته بشدة.

الثاني: أعد تقوية المثل العليا الغربية، ففي تنازع الأفكار والمثل العليا، الأعداد لا تهم، ولو كانت تهم، لما تغيرت الآراء والمعرفة أبداً، وما يهم هو، إلى حد معين، القيمة الذاتية للأفكار وللمثل العليا[1]، وإلى حد أكبر الشدة التي تُعتقد بها هذه الأفكار والمثل، وكل دين مهيمن بدأ بصفته طائفة ضئيلة، قادرة على تغيير عقيدة الآخرين من خلال قوة القدوة والإقناع، وإن قيادة الغرب الإيديولوجية ـ أي، حقيقة أنه لا توجد حضارة أخرى تمتلك مثل هذه المجموعة من الأفكار المتقدمة، أو المتماسكة التي تعمل على هذا الوجه الصحيح إلى هذا الحد ـ ليست ضماناً أن الإيديولوجية سوف تبقى مهيمنة، أو تبقى على قيد الوجود كذلك، فإذا كنا نحترم التنوع، ولا نفرض مثلنا العليا بالقوة، فإن شدة الإيمان حينئذ ستكون هي الأسمى.

والإيمان ليس بالدرجة الرئيسة مسألة إيمان يستخدم كالأداة، أي أن الفكرة قيِّمة؛ لأنها مفيدة مادياً، والإيمان بالدرجة الرئيسة هو مسألة أخلاقية و/أو إيمان روحي، أي أن الفكرة هي أيضاً مثل أعلى، وطموح إنساني ذو قيمة، وإن الغرب يستطيع أن يبيع محيطات من الكوكا كولا، ولكن محيطات الكوكا كولا لا تستطيع أن تبيع الغرب، وما يستطيع الغرب أن يعرضه عرضاً متميزاً ليس الوفرة؛ لأن هذه الوفرة

(1) في الحديث عن ـ القيمة الذاتية ـ للأفكار، لا نعني أن نضمر أن بعض الأفكار صحيحة بشكل مطلق، أو قيمة بشكل مطلق، نعني فقط أن بعض الأفكار أفضل من أفكار أخرى في تحقيق أهداف إنسانية معينة في بيئة محددة، وفي وقت محدد.

تستطيع أن تأتي، مثلما أظهرت ذلك اليابان، من دون تبني المجموعة الكاملة من القيم الغربية، وما يمتلكه الغرب ليقدمه هو الحرية الفردية، فإذا كان الغربيون لا يقدرون الحرية الفردية كثيراً، أو يتظاهرون بأنهم لا يفعلون، فلن يكون لدى الغرب شيء يملكه ليعطيه، ولن يكون لديه شيء يملكه، وينبغي أن يحفظه.

الثالث: اجتذب البقية إلى الغرب، فلا يكسب المرء، في هذه الأيام، زوجاً أو شريكاً رومانسياً بالقوة، أو بالتودد الملحاح، أو المتجاوز للحدود، بل يجتذب المرء الآخرين بكونه صديقاً، وفاتناً، ومرضياً، ومتآمراً، لا بل قليل الثقة بنفسه أو متظاهراً بالخجل، باختصار، بأن يكون جذاباً. في السوق الحديث للآباء وللأصدقاء، ينشد الناس العلاقة ويسعون لها، لا تباع لهم، وإذا كان هناك أي بيع، فهو ناعم للغاية، ومرهف دقيق.

وهكذا يكون الأمر مع الحضارات والمجتمعات، ففي القرن التاسع عشر، مد الغرب حضارته بالقوة، وفي غضون عشرين سنة فقط بين العام 1875 والعام 1895، استولت ست قوى أوروبية على ربع أرض الكرة الأرضية، ودمجت تلك البلدان في إمبراطورياتها، ورأى القرن العشرون انهيار الإمبراطوريات الغربية، وفي تعابير جغرافية محضة، ومن حيث الأرض، وعدد الرعايا، انحدر الغرب، كما تنبأ إشبنغلر في العام 1918، إلى جزء صغير من حجمه المنتفخ، وفي الحقيقة، لم يكن هذا انحداراً: لقد كان ببساطة فكاً لمشروع غير قابل للاستدامة، وهو تحويل الثقافات الغريبة والشعوب وتغييرها بالقوة.

حدث تحول عميق في وسط القرن العشرين، تحول من تلك التحولات التي ترفع قيمة الحياة في المواقف وفي السلوك، وهي تحولات يجري التقليل غالباً من تميزها والثناء عليها، أو لا تكاد تلحظ، ففي الغرب، خرجت فكرة الاستيلاء على الأرض، أو غزو بلد مجاور أو بعيد وادعاء أن أرضها وشعبها ملك لمن غزاها، فقد خرجت فجأة من الطراز الدارج، وربما إلى الأبد، والمنفعة فيما يتصل بالسعادة الإنسانية، وغياب البؤس منفعة ضخمة، ولا تحصى.

والطريقة الحديثة لنشر النفوذ والأفكار هي الطريقة الطوعية، لا بالقوة، ولكن بالجاذبية، وذلك هو السبب الذي من أجله قامت الأفكار الغربية ـ وخصوصاً المسيحية، والتفاؤل، والنمو، والعلم، والليبرالية ـ بشكل ثابت بتغلغلات في المجتمعات غير الغربية منذ العام 1950 أكبر مما فعلت في السابق في القرن التاسع عشر، وفي آخر 60 عاماً، كان الغرب في تقديم خير أفكاره في الأماكن التي تجنب فيها استعمال القوة (أوروبة الشرقية ، وروسيا، ومعظم أمريكا الجنوبية، وإفريقية الجنوبية، وأجزاء من آسيا) أنجح منه في الأماكن التي استخدم فيها اليد الثقيلة (كوريا، وفيتنام، والشرق الأوسط). والقوة ليس لها تكلفة ضخمة في الأنفس والمعاناة فقط، إنها أيضاً لا تعمل جيداً في الوصول إلى أغراضها، فالدماء والصواريخ لا تكسب القلوب والعقول، إن للقوة تكاليف أعلى ومنافع أقل من الجاذبية، ويبدو أن هذا الدرس لم يجر تعلمه تعلماً كاملاً من الجميع حتى من الغرب، ولكن مع اكتساح تاريخي طويل طولاً كافياً، فهو درس واضح، ولا يمكن النزاع فيه.

لقد كانت الشيوعية، على الأقل في أشكالها المدفوعة من الدولة والمتطورة تطوراً كاملاً والمنتسبة إلى هذه الأشكال، واحداً من الشرور الكبيرة من شرور القرن العشرين، وفي الحقيقة من شرور كل الزمان، وكان ستالين وماو في جرائمهما أكثر قتلاً من هتلر، فهل الأسلحة النووية هي التي أنهت الشيوعية؟ هل أنهتها حروب النجوم؟ هل أنهتها قوة السلاح؟ بالتأكيد، من دون القوة المعادلة لحلف الأطلسي (الناتو) كان ستالين وماو سيستعبدان المزيد من الأراضي والشعوب، ولكننا إذا سألنا ما الذي كان أكثر أهمية في إنهاء الشيوعية، القوة الصلبة أم القوة الناعمة؟ والقوة أم الجاذبية؟ فإن الجواب واضح، وأمعن النظر فيما كان سيحدث في الإمبراطورية السوفيتية بين العام 1980 والعام 1991 لو أن حكامها، وعلى وجه الخصوص ميخائيل غورباتشوف، لم يتم إغراؤهم بالقيم الغربية، فقد كانوا سيقمعون الثورات في أوروبة الشرقية بالوحشية الستالينية، لقد كانوا يملكون القوات العسكرية، ولكنهم لم يملكوا الإرادة. لقد فكك الاتحاد السوفيتي نفسه؛ لأنه توقف عن الإيمان بقيمه الخاصة المناوئة للقيم الغربية، وبعد ذلك في الحال، وببراعة أكبر، وإن كان باكتمال أقل، تحركت الإمبراطورية الصينية في اتجاه مشابه.

التسلسل واضح، فإنما تكتسب الأفكار أرضية حين تكون جديدة، ويكون الإيمان بها حماسياً، ويتوصل المزيد من الناس إلى الإيمان بها إيماناً شديداً، فقوة الأفكار تغير العالم، وبعدئذ تفقد الأفكار قوتها على التفعيل ومنح الطاقة، وتصير الأفكار ناضجة، وغير مثيرة،

وتقليدية، ورسمية، وموضوعاً للتعبير اللفظي غير المخلص، ويكثر التشكك والمصلحة الذاتية، وتصير الأفكار الجديدة أكثر إثارة للاهتمام وأشد جاذبية، وتبدأ الدائرة تدور ثانية، وفي معركة الأفكار، عليك أن تؤمن قبل أن تستطيع الإقناع، عليك أن تكون جذاباً قبل أن تستطيع أن تجذب، وتستطيع أن تمتلك أروع قصة في العالم، ولكنك إن لم تؤمن بها، فلن يؤمن بها أحد آخر كذلك، أين هم المؤمنون الحقيقيون اليوم؟

إذا كان الغرب يؤمن بقيمه، ويريد أن ينشر تأثيرها ـ لأن الغرب سيكون أكثر أمناً، ولأن العالم سيكون أسعد حالاً في الوقت نفسه نتيجة لذلك ـ فعليه، حيثما يستطيع على نحو ممكن وخلاق، أن يستخدم القوة الناعمة، لا القوة الصلبة، الجزرة لا العصا، القدوة لا التوجيه، الشد لا الدفع، ويجب عليه أن يتمسك بقيمه لا أن يخرقها، فإن الهيمنة العسكرية الأمريكية المائلة بلا توازن ميلاً ضخماً هي تهديد مزعج، لا لأعدائها فقط، ولكن لها نفسها أيضاً.

إن عملية الجذب لن تنتج نتائج سريعة، ومن الصعب رؤية أماكن معينة «لنفترض الصين أو العالم الإسلامي» تبنى الديمقراطية الليبرالية والفردية، ومع أنظمة الحكم القمعية نفسها، فإن أفضل سياسة للغرب هي بالتأكيد أن يترك جاذبية الغرب تؤثر على شعوب تلك الأنظمة، والاتصال السلمي مع الغربيين المحتشمين قد يعمل ببطء على تآكل الانحياز المعادي للغرب وهكذا، وفي نهاية المطاف، قد

يعمل على تآكل الطبيعة المعادية للغرب لأنظمة الحكم تلك، فإذا بقيت الأنظمة معادية عداء حازماً للغرب، فسيكون السبب في النهاية هو أن القيم الغربية لا تثبت أنها جذابة جاذبية كافية لغير الغربيين، وسيكون ذلك مخيباً للأمل. ولكن، وشريطة ألا تؤوي أنظمة الحكم هذه إرهابيين، أو تغزو الأراضي الغربية، فإن الغرب يستطيع أن يعيش مع مثل هذه النتيجة، ويجب عليه أن يفعل ذلك برضا، وطيبة نفس.

خاتمة

لن يكون العالم بوتقة انصهار، ولا سيتبنى القيم الغربية تبنياً طبعياً، ومحاولة فرض هذه النتيجة بالقوة، أو تقديمها عن طريق القسر بشكل جوهري، هو عمل غير ليبرالي، وغير عملي، وغير مجد، وبالتأكيد، تستطيع أمريكا أن تفرض إمبراطوريتها بلا رحمة على الكثير من العالم، ومن الممكن على كل العالم، ولكن الحرية والأجزاء الجذابة من الحضارة الغربية سوف تفشل بالاستمرار وتنسحب، والنتيجة نفسها سوف تتبع أي محاولة جادة من الغرب للتراجع إلى معسكره.

إن البديل الوحيد العملي المعقول بالنسبة إلى الغرب هو أن يحترم الاختلافات الثقافية، وأن يمارس الصبر وطول الأناة، وأن يؤمن بأفضل أفكاره، وأن ينشر نفوذه بالقدوة، وأن يترك الأفكار، ونتائجها تتكلم عن نفسها، وأن ينزع سلاح الأعداء بالتدريج ويجتذب الأنصار المشايعين.

ومن المؤكد، أن أمريكا، وأوروبة وحلفاء الغرب يجب أن يردوا على أي اعتداء على تربتهم بقوة فورية، فعالة ومتناسبة، فما من حضارة

قوية، وواثقة بنفسها يمكن أن يُتوقع منها أن تفعل أي شيء آخر، ولكن سلام الغرب والعالم، وأمنهما، وسعادتهما سوف تعتمد في نهاية المطاف على تقليد أمريكا من خلال معظم تاريخها، وأوروبة منذ العام 1945، وهو تجنب الاستبداد والعدوان، ورفض ترقية المصالح الاقتصادية، أو السياسية بغزو الأراضي الأجنبية واحتلالها، ومد يد الصداقة والتعاون أولاً لجيران المرء، ثم بعدئذ إلى جميع الذين جاؤوا في السلم.

إنها غاية صعبة المنال، وهناك دائماً ذرائع وأسباب للارتداد إلى العدوان، وهو تاريخياً الفطرة الطبعية، أو الخيار التلقائي، لأي دولة أو حضارة قوية، ولقد ضرَّج الغرب غالباً نفسه وأعداءه بالدماء، فهل تطورت الحضارة الغربية إلى النقطة التي يمكن فيها كسر دائرة الكراهية المتبادلة؟ وهل يؤمن الغربيون بالحرية والرحمة؟ وهل ستكون السياسة الخارجية الغربية مستندة إلى إستراتيجية الاجتذاب؟ وهل ستتوحد أمريكا وأوروبة؛ كي يعرضا تراثهما، ليحققا إمكانية حضارتهما المشتركة؟

أو هل سيختطف الغرب الهزيمة من فكي النصر؟ في الفصل الأخير، نقوِّم الاحتمالات.